

عزيزتي السيدة طه

بالطبع كنت من أول زائري معرض الكتاب ، وكان أول ما قصده حناح شركة رياض الريس للنشر حيث اقتنيت الكتاب، بالإضافة إلى مجموعة من الكتب القيمة، غير أن الحظ عاكسني، فلم أتمكن من الحصول على كتاب "المقام العراقي بأصوات النساء" الذي أبحث عنه منذ حزيران الماضي، لكنني اتفقت مع ممثل الشركة أن يعثه لي بواسطة البريد.

بالرغم من التطور التكنولوجي الهائل و الذي يمكننا من الحصول على المعلومة في دقائق، و قراءة كتاب كامل على شاشة الكمبيوتر، إلا أن للكتاب طعماً خاصاً لدي، إذ نادراً ما تحلو الكومبيوتر التي تلاصق سريري من كتاب . "عمرج أطول من عمري" كنت أنوي إخبارك بهذا لكنني آثرت أن أنتهي من قراءة الكتاب أولاً. و مما ساهم في تأخري في الانتهاء من القراءة، هو أني كنت أقرأ و أسرد بعض التفاصيل على محمد بأسلوب مبسط و بما يتناسب مع سنه.

فرغت من الكتاب و أعطيته للعائلة لكي يقرأوه . الحقيقة إن الكتاب أعجبي، ونقل إلي التفاصيل بجزئياتها المرعبة و التي عان منها كل أهل العراق إبان الغزو الأميركي. لقد أبداع الأستاذ بول شاؤول في كتابة المقدمة و التعريف بالكتاب ، المقدمة التي كتبها كانت أسرة . الكتاب يحمل مجموعة من المشاعر المختلفة ، الموحدة في قلوب كل الناس، ربما الغير لا يعرف كيف يعبر عنها، أو يترجمها، فكانت هذه المقالات هي الترجمة الوافية لكل ما أحسنا به من مشاعر و أحاسيس أثناء الحرب وما بعدها و ما نعيشه الآن. كانت الفقرة التي تضمنها مقال "حكاية ضربة بوش الأب و ترقب ضربة بوش الابن" ، الفقرة التي بدايتها "السؤال لا يبرح مخيلتي فمن يدري ماذا سيحدث" ، كانت مؤلمة ومؤثرة، وجاءت الصفحة التالية على هذه الفقرة أكثر تأثيراً وإيلاًماً ووحداً: شجرة التوت وذكريات الطفولة .. مقال "أبوم الزميلة العائدة من بغداد" بقلم الأستاذ سامر أبو هوش حمل الكثير من معاني الحياة، بل بالأحرى حمل الحياة بعينها و الإصرار على العيش مهما كانت الظروف، وإصرار الأهل و الأطفال خاصة على عدم إخماد جذوة الحياة .

كانت مقالات "سامحيني أمي" و "أخيراً سمعت صوتك يا أمي" و "عندما رأيت حيناً في الأعظمية ركاماً" الأكثر تأثيراً في النفس، حفرتا في قلبي عميقاً، وبالأنحص الأولى، إذ أن ذكر الأم دائماً ما يثير في النفس شجوناً. الخوف و عناء الانتظار و الترقب أحسست به و كأني أنا صاحب العلاقة عندما وصفته في المقال الثالث . الفقرة الأخيرة من مقال "وجوه جميلة و قلوب بشعة" و التي تبدأ : " .. بالأمس كنت أشارك للاجئين الفلسطينيين "حرك شيئاً ما بداخلي، لم استطع تفسير ماهيته. "العالم تخلى عنا" جعلتني أتمنى أن يعود الزمان يوماً لينعم العراقي بطعم الحياة ، لا الحياة المادية، بل المعنوية، الشعور بالأمان و العيش بهدوء و سلام، كل ما يتمناه العراقي، بل الإنسان في أي بقعة على الأرض، أصبح كحلهم صعب المنال للفرد العراقي .

عنوان "أيام في النجف" حمل لنا شقاوة الأطفال و عشقهم لمعرفة المجهول، و الفضول الذي يضحج بالبراءة ، كان هذا الفصل سبباً في إهماء الكثير من معانتي مع أخي محمد، لكونه صغيراً شقيماً كغيره من أقرانه، فإن فكرة السرداب ذي الطابقين كانت جديدة ياخافته، لا أدري كيف جاءني الإلهام لهذا، لكنني حورت قليلاً في مضمون المقال، حيث أخبرتني أن الأشقياء يتم دهن أذنه بالديس ثم يوضعون في الطابق الأسفل من السرداب حتى تأكلهم الفئران .

أكثر ما أثار فيني هي قصة تجمع الحشود لتقدم طلبات بيع الكلى، وأنا أقرأ شيئاً فشيئاً جاءني الخبر كالصاعقة، أو ربما أقوى وقعاً، لا أكذب عليك إن قلت لك أن هذا الأمر ما زال يحز في نفسي، بل يجعل قلبي يعتصر من الحسرة و الألم. لله درك يا سيدتي كم تحملت من آلام و نواب، ثلاث حروب في العراق و الحرب اللبنانية و فقد الأجيال هنا وهناك . الحق الحق أن الكتاب جاء فريداً في هذا المجال، صور لنا الحياة اليومية أثناء الحرب و ما بعدها، جمع الكتاب بين السيرة الشخصية، الحس الأدبي، الوثيقة التاريخية، الإسقاط المعاصر و المقارنة بين أحداث في العراق و لبنان .

غنى الكتاب بالألفاظ العراقية كان مصدر قوة للكتاب، كما أن شرح هذه الألفاظ و معادلة الكثير منها بالألفاظ اللبنانية جاء في محلها تسهيلاً للقارئ العربي الذي قد لا يدرك اللهجة العراقية.

نقطة أخيرة أود الإشارة إليها، و هي صور العود الثلاث التي ترين غلاف الكتاب ، فتبين محتضنة العود في الأولى، و يوجد عوداً آخر يطل من قمرة عودك الذي تحتضين، و تبدو لنا صورة بنحوق وزند عود آخر تطل من خلال السور الحديدي . ست سحر ، دائماً تؤثرين فينا، و تصلين بنا إلى درجة الاقتراب من البكاء، بل و البكاء في أحيان كثيرة، و كنت قبل ذلك عصي الدمع لا استسهل ملوحة دموعي .

في النهاية أتمنى لك كل الخير و النجاح الدائم و المتواصل ، آملاً أن يبرز الكتاب الرضا لدى الجميع، و أن تبعه كتب أخرى .

المخلص

يوسف علي